حتى اذا تمكنت العادات وصارت طباعاً موروثة تعذر نزعها الاَّ بشق الانفس

اذا كان الطباع طباع سوء فليس بنافعٍ ادبُ الاديبِ

مصير التمدن

مترجمة بايجاز عن كتاب هنري جورج الكاتب الاميركي الشهير بقلم نسيم افندي بر باري

لا عجب اذا افتخر ابناء القرن التاسع عشر على المتقدمين بعد ان اوتوا من العلم والاختراع ما لم يحلم بهِ سلفاؤهم وسما تمدنهم على كل تمدُّن قبلهُ . واول ما يخطر على بال الباحث بعد ان تذهب سوْرة خمر الافتخار من رأسهِ هو هل يبقى تمدننا هذا الى ما شاء الله او يرجع المتمدنون القهقرى فتغزو جيوش المتوحشين اوربا وتعفو معالمها فتندرس آثارها ويبتدئ تمدن آخر يرى اهلهُ انفسهم ارقى منَّا كما نرى انفسنا ارقى من اسلافنا

وقد يظن المرء لاول وهلة ان هذا مستحيل من جميع الوجوه وان العالَم سائرٌ سيرًا حثيثًا في سبيل الارتقاء وسيدوم كذلك الى ما شاء الله. ولا يبعد ان الروماني الذي شاهد عظمة رومية وسمع بانتصار جيوشها ورأى القياصرة تدخلها باحتفال عظيم وقد شُدَّ اسرى الملوك الى مركباتهم كان يرى في تمدنهِ ما نراهُ نحن في تمدننا بل ربما تطرَّف الى اكثر من ذلك لجهلهِ ان في شجرة التمدن دودة تنخرها وقد نخرت شجرة التمدن القديم قرونًا عديدة والناس عنها لاهون حتى اذا عصفت بها ريح زعزع لم تقوَ على صدّها. اما نحن فنعلم كيفيَّة سير الداء الذي طرأ على التمدن الحديث وقد قام الناس لمداواتهِ فاذا لم يفلحوا عدنا الى ما كنَّا عليهِ منذ الف عام وذهبت اعمال القرن التاسع عشر ادراج الرياح

واول ما يجب البحث عنهُ هو اسباب هذا التمدُّن واحكامهُ . والمعتمد عليهِ عند الجمهور هو ما قرَّرهُ الفيلسوف هربرت سبنسر وغيرهُ من ان قوى الناس قد ارتقت بفعل الانتخاب الطبيعي وناموس الوراثة كما ارتقت انواع الحيوان في مذهب النشوء والارتقاء او بعبارة اخرى انهُ كلما اشتدَّ التنازع للبقاء اضطرَّ الانسان الى الاختراع والاستنباط لاصلاح حالهِ وبقاء نوعهِ . وهذا الاصلاح وقوَّة الحصول عليهِ يرثهما الفرد او الشعب الذي هو اصلح من غيرهِ للبقاء . وعلى هذا المذهب يكون البقاء قد خُصَّ

باقوامٍ دون غيرهم وتكون الحروب والاوبئة والمجاعات اسباباً لارتقاء القوي وانقراض الضعيف . ويقول اصحاب هذا المذهب ايضاً ان المتمدّن يفوق المتوحش بكل ما تعلّمهُ سلفاؤهُ منذ اول ارتقائهم في سلّم المدنيّة وان نتيجة ما حصّلوهُ في القرون ٱلّتي سلفت قائمة في جوهر دماغهِ فاصبحت ملكة الارتقاء غريزيّةً في المتمدنين وستمكّنهم من عمل العجائب . وعندي ان هذا المذهب فاسد لانهُ لا ينطبق على احوال الامم ولا يمكننا ان نُعلّل بهِ كل ما طرأ عليها . مثال ذلك ان الهند والصين بلغتا درجة سامية من التمدن عند ما كان الاوربيون يهيمون في فيافي الجهل ثم وقفتا على حالٍ واحدة ولا تزالان كذلك. ومثلها مصر ٱلّتي بلغت شأناً لم يبلغهُ غيرها من الممالك القديمة ثم رجعت القهقرى حتى نسي المصريون آثار اجدادهم وزعموا انها من اعمال الجنّ والعفاريت . فلو كان الارتقاء نتيجة سنّة طبيعيّة ثابتة لبقي اولئك الشعوب في ارتقاء مستديم والله عليمٌ بما كان قد بلغ اليهِ حال العالم الآن

ومن المسلّم بهِ ان الاساس الذي بني عليهِ تمدّننا اوسع وامتن من اساس كل تمدّن سواهُ وان مسيرنا فيهِ اسرع ولكن ما كان هذا ليجعلهُ اخلد من تمدّن الرومان واليونان الذي فاق تمدّن شعوب اسيا بمقدار ما يفوقهُ تمدّننا . واذا لم نقوَ على مقاومة الداء الذي اعترى تمدن الشعوب السالفة فتمدننا سائر الى الاضمحلال مثل تمدنها لا محالة فتصح نبوّة ماكولي الكاتب الانكليزي الشهير الذي قال في احد كتبهِ ان اهالي زيلاندا الجديدة سيأتون يوماً ويقفون على خرائب جسر لندن ويراجعون التواريخ ليعرفوا مَن بناهُ

وقبل البحث عن ناموس ارتقاء الشعوب يجب ان نوضح اسباب الاختلاف في تمدّنها. فقد زعم كثيرون ان لكل شعبٍ مزيّة فطرية تميزهُ عن سواهُ وهي علة ما يرى بين الشعوب في الاختلاف في التمدّن

ولا مراء ان هذا التعليل بعيد عن الصواب ولو كان فيهِ بعض الصدق من جهة وجود مزايا يتوارثها افراد الشعب الواحد غير ان تأثيرها لا يذكر بالنسبة الى تأثير الاحوال والعوامل ٱلّتي تطرأ على الانسان بعد ولادتهِ . فقد اكّد الباحثون ان اولاد المتمدنين الذين سرقهم هنود اميركا قد شبّوا على عادات الذين حولهم كأنهم ولدوا فيها . ولو رُبّي اولاد الزنوج كما يربى اولاد البيض تماماً لوصلنا الى هذه النتيجة نفسها . فقد قال معلمو اولاد الزنوج انهم يفوقون اولاد البيض نجابة الى عمر معلوم ثم يتأخرون عنهم بعدهُ وقد علّل ذلك الاسقف هابري الزنجي بانهُ اذا رأى اولاد الزنوج ان اولاد

البيض ينظرون اليهم شزرًا ويقولون انهم لا يصلحون الاَّ ليكونوا خدمةً ضعفت همتهم وتقاعدوا عن الجد والسعي ولا سيما لانهُ ليس لوالديهم مطامع عالية او آمال رفيعة . وهذا الفرق ظاهر جليًّا بين اولاد الفقراء والاغنياء من البيض فانهم يتساوون معًا في الدروس الابتدائيَّة ثم اذا تقدموا الى العلوم العالية فاز منهم الاغنياء الذين توفَّرت لهم وسائط التقدم كاقتناء الكتب ومعاشرة العلماء والحضور في النوادي العلميَّة

وقد اورد البعض شواهد عديدة على ان الاشقياء المشهورين ورثوا الشقاوة عن والديهم ومعلوم انَّ المتسوّل يعوِّد ولدهُ التسوُّل وعشير الاشرار شريرٌ بالطبع سواءٌ كان من صلبهم او كان ابن افضل والدٍ

وخلاصة ما تقدَّم ان اختلاف الشعوب ليس ناتجًا عن غريزة في طبيعة الشعب بل عمَّا حاكهُ ذلك الشعب لنفسهِ من الشرائع والقوانين والعوائد فاذا وُلد ولدٌ غريب في بلاد وامتزج باهلها تخلَّق باخلاقهم ولم يبقَ فيهِ شيءٌ من اخلاق اسلافهِ المخالفة لها

فيتضح مما تقدم ان ناموس الارتقاء المشار اليهِ آنفًا ناقصٌ من وجوه عديدة اذ لا يمكننا ان نعلل بهِ الاختلاف العظيم بين الشعوب المختلفة الَّتي نشأت اصلاً في وقت واحد وكانت قواها العقليَّة واحدة . ولا وقوف تمدُّن بعض الشعوب على حال واحدة مدة قرون عديدة وتقهقر البعض الآخر . ولا نوع الاختلاف بين التمدن الاوربي والاسيوي والتمدن القديم والحديث . فاذا كان للارتقاء ناموس وجب ان يعلَّل بهِ كل ما تقدَّم ويُعلَّل بهِ ايضًا ما يحدث احيانًا من وقوف التمدن بغتةً او نموهِ بغتةً وتعلم منهُ الاسباب الَّتي تؤول الى ترقي التمدن وتأخُّرهِ

والانسان يسير في سبيل التمدن مدفوعًا بعوامل غريزيَّة فيهِ وهي سد عوز جسدهِ وعقلهِ وعواطفهِ ولذلك يعمل طمعًا بالبقاء ورغبةً في زيادة المعرفة وحبًّا بالعمل وهذه الاميال لا تتعب بل تزيد كلما اجتهد في اتمام مطالبها

والعقل هو الواسطة الَّتي بها يسعى الانسان في ادراك هذه المطالب . ولما كانت الحياة قصيرة استحال على الفرد الواحد ان يعمل شيئًا كثيرًا لكنَّ كل فردٍ يرث ما عملهُ سلفهُ ويزيد عليهِ وبذلك يرتقي التمدن تدريجًا

وتقدُّم الشعب هو بنسبة القوة العقليَّة الَّتي يبذلها افرادهُ في تحسين احوالهم الاجتماعيَّة فاذا بذلوا قواهم العقليَّة كلها في طلب المعيشة ساءت احوال الشعب وانحطَّت الى درجة سفلى . ويظهر هذا الامر جليًّا في حياة الافراد . فالعامل الذي يضطرُّ ان يعمل نهارًا وليلاً

لتحصيل بُلغةٍ من العيش يتعذَّر عليهِ تأليف الكتب واختراع الآلات لان انهماكهُ في طلب القوت لا يبقي لهُ فرصةً لعمل آخر

ويقلُّ التعب في طلب المعيشة متى سكن الناس معاً وتقسمت الاعمال بينهم اي متى سادت الحضارة فيتفرغ العقل اذ ذاك للبحث في العلوم والفنون ويشيد صرح التمدن ولذلك فسيادة الحضارة هي الشرط الاول لبقاء التمدن . والشرط الثاني هو وجود العدل والحريَّة اذ بدونهما يضطرُّ الانسان الى حرب دائمة ليأمن على نفسهِ ومالهِ فيشتغل بها عن اصلاح حالهِ

هذا هو ناموس التمدن وهو كافٍ لتعليل ما نراهُ من قيام الممالك وسقوطها . فكلما اجتمع الناس معاً وتعاونوا على اعمال الحياة ارتقوا وساروا في سبيل التمدن ثم اذا تطرَّق الى احكامهم الجور وعدم المساواة عاد ذلك التقدم تقهقراً

وتتوقف سرعة التمدن على العقبات الَّتي في طريقهِ وهي إما خارجيَّة او داخليَّة والاولى منها تظهر على اشدها في بداءة التمدن والثانية عند بلوغهِ اتمَّهُ . وبديهيٌّ ان اختلاف البلدان والاقاليم في ارتفاعها وانخفاضها وسهولتها ووعورتها وحرها وبردها يدعو الى اختلاف في تمدن سكانها فالسهول الخصيبة كوادي الفرات ووادي النيل حيث الهواء معتدل والمعيشة ميسورة كانت مهد الحضارة والتمدن وذلك لان سكانها لم يضطروا ان يصرفوا قواهم كلها في طلب المعيشة اما البلاد الجبليَّة القاحلة الباردة فقد سار فيها التمدن سيراً بطيئاً جدًّا في اول الامر وسبب ذلك ان الجبال العالية والانهر الواسعة السريعة الجري ونحوها من الصعوبات الطبيعيَّة تمنع الناس من التقرب بعضهم من بعض فيسود الاختلاف عليهم وتنتشب الحروب وتتعدد القبائل ويكون لكلٍّ منها لغة وعوائد وتقاليد مختلفة وتبقى على هذه الحال حتى تتسلط عليها امةٌ غريبة فتجمعها كلها معاً وتبطل الحروب من بينها فيتفرغ افرادها لما هو خير لهم وابقى

وليست الفتوحات الخارجيَّة بالعامل الوحيد في جمع القبائل المتفرقة بل ان اختلاف وجه الارض الذي يكون في الاول سبباً لابتعاد الناس بعضهم عن بعض يحبي التجارة بينهم اخيراً والتجارة تضمن السلم طويلاً لان الحرب معطلةٌ لها

وكفى بالتاريخ شاهداً على ما تقدم. ففتوحات الرومان جمعت قبائل اوربا المتوحشة معاً ونظمتها في سلك التمدن . ثم لما هاجمهم جيوش البربر تفرقوا ايدي سبا وعادوا الى الخشونة الاولى حتى قيَّض الله لهم مُلك الاشراف فاجتمعت هذه القبائل في اقسام

كبيرة تجمعها معاً وحدة الديانة . ثم انقسمت هذه الاقسام حتى صارت ممالك كبيرة وهي ممالك اوربا الحاضرة فنما فيها غرس التمدن واينع وصار العالم الى ما هو عليهِ

قلنا سابقًا ان الفاعل العظيم في ترقية الناس هو القوى العقليَّة ٱلَّتي تمكّنها الحضارة والعدالة من التفرغ لما هو انفع وابقى . ولا يخفى انهُ كلما ارتقى الناس كثر التعقيد في قوانينهم وزاد اعتماد افرادهم بعضهم على بعض بتقسيم الاعمال بينهم فبعد ما يكونون كالحيوانات الدنيا ٱلَّتي اذا قطع عضو منها عاشت بعدهُ وعاش هو مستقلاً عنها يصيرون كالحيوانات العليا ٱلَّتي لكل عضوٍ من اعضائها وظيفة خاصة بهِ ولا يمكن الجسم ان يعيش بدونهِ

وتقسيم الاعمال وارتقاء العمران يدعوان الى عدم المساواة.ولا نريد بذلك ان عدم المساواة هو نتيجة العمران بل ان العمران يؤدي اليهِ ان لم تتخذ لهُ التدابير اللازمة من وقت الى آخر وبعبارة اخرى ان ثوب العوائد والقوانين والنظامات ٱلَّتي يحيكها الشعب في ارتقائهِ سلّم المدنيَّة يضيق على لابسهِ اذا نما فتدعو الحال الى توسيعهِ من وقت الى آخر او ان الانسان يسير في طريق كثيرة التعاريج وهو يتقدّم في الحضارة فاذا لم يتخذ العقل نبراساً خيف عليهِ من الضلال

ولا يخفى على من راقب طبائع الناس ان في الانسان خلتين ظاهرتين اتمّ الظهور. الاولى قوة العادة او قوة الاستمرار ونتيجتها ان الانسان يستمرّ احيانًا على اتباع بعض العوائد والاحكام ولو لم يبقَ لها داعٍ لزوال السبب الذي وُضعت لهُ والثانية إمكان التقهقر ادبيًا وعقليًا ونتيجة ذلك ان الناس قد يتبعون آراء واحكاماً لو تأمّلوا فيها لنفرت طبيعتهم منها . ويظهر لمن ينعم نظرهُ في العمران انهُ يربط الناس بعضهم ببعض حتى يضطر كل واحد منهم ان يعتمد على غيرهِ كما يعتمد على نفسهِ لانهُ لا يعود قادرًا ان يعمل وحدهُ كل الاعمال اللازمة لمعيشتهِ وراحتهِ وانهُ يتولّد من مجموع افراد الشعب قوّة عامّة تمتاز عن قوّة افرادهِ كما ان قوّة الحيوان كلهِ تمتاز عن قوة كل عضو من اعضائهِ. فاذا تقدّم الشعب وظهرت منهُ هذه القوّة الحاصلة من اجتماعهِ مال من نفسهِ الى حصرها في فريق منهُ فينحصر الغنى والجاه في ذلك الفريق ويزيد الفرق بين طوائف ذلك الشعب لان استعمال الغنى يزيد الاغنياء ثروة واستعمال الجاه يزيد الظالمين ظلماً

وعلى هذا الاسلوب استحالت رئاسة العائلة الى ملك وراثي . وذلك ان اب العائلة يكون رئيساً لها فاذا مات خلفهُ ابنهُ الاكبر لانهُ اكثر اختبارًا من غيرهِ ولكن اذا دام

هذا الترتيب فمن مقتضاهُ انحصار الرئاسة في بيت واحد من بيوت القبيلة ٱلَّتي تولَّدت من تلك العائلة . وتزيد قوة ذلك البيت بل قوة رئيسهِ بنمو القبيلة واتساع نطاقها وازدياد قوتها الى ان يصير ذلك الرئيس ملكاً فينظر الى نفسهِ وينظر اليهِ شعبهُ كانهُ من جبلة غير جبلتهم ولهُ حقوق فوق حقوقهم فتزيد قوتهُ على عقاب المسيء واثابة المحسن فيتزلف اليهِ شعبهُ ويتملقونهُ طمعاً بثوابهِ وخوفاً من عقابهِ فاذا لم يحدث حادث يصلح هذا الخلل صار الشعب عبيدًا لملكهم وقضى مئة الف منهم عمرهم كلهُ في بناء مدفن لهُ كما فعل المصريون لما بنوا الهرم الاكبر لملكهم وهو انسان مثلهم

وعلى هذا الاسلوب او ما يماثلهُ يستقل بعض الناس بادارة الاحكام والسلطة السياسيَّة والدينيَّة ان لم يقم من الشعب ما يزيل هذا الاستقلال ويمنع ضررهُ ويعيد الى الناس المساواة واعظم سبب لنزع المساواة من بين الناس هو امتلاك الارض . ويرى المرء لاول وهلة ان الارض يجب ان تكون مشاعة لمن يستخدمها وينتفع بها وهذا هو حال الامم ٱلَّتي لاتزال على الفطرة الاصليَّة . الاَّ انهم لا يلبثون طويلاً حتى يبتدعوا حق التملك ويكون هذا الحق محصورًا بادئ بدء بما ينتجهُ الانسان من الارض ثم يطلق على الارض نفسها فاذا كانت واسعة والشعب قليل العدد لم يظهر ضرر امتلاكها فيهِ واما اذا نما وكثر عددهُ آل حقُّ التملك هذا الى جعل العمَّال اجراء في الارض وحصر ريعها بملاَّكها فتزول المساواة وتكثر الفاقة وتتداعى اركان العمران كما سيجيء في الجزء التالي

النيلوفر

كيفما قلَّبت الطرف في الآثار المصريَّة القديمة سواء كانت نقوشاً و رموزًا او عُمُدًا وهياكل او صورًا وتماثيل ترى لزهر النيلوفر (البشنين) المقام الاول بين الازهار والرياحين . تراهُ قلادة في جيد الغادة الحسناء واكليلاً على رأس البطل الباسل وطاقةً في يد الضيف الكريم . وهو تاج الاعمدة ومقبض العصي وصداغ السُّفُن وزينة المحافل والولائم ولا تخلو منهُ مائدة ولا تقدمة ولا زينة ولقد صدق من سمَّاهُ ورد المصريين القدماء . واما اذا طالعت الصحف المصريَّة الحديثة صحيفة صحيفة وقرأت ما يطبع في هذه الديار وينشر فيها من الكتب العلميَّة والادبيَّة والفكاهيَّة فلا تكاد تعثر فيها على كلمة النيلوفر مرةً واحدة . وهذا من الغرابة بمكان . فان الزهر الذي كان لهُ رمز ديني وادبي وسياسي